كتاب مكارم الاخلاق

لابي منصور الثعالبيّ برّد الله مضجعهُ
تولّى نشرهُ الاب لويس شيخو اليسوعي

تَوطِئَة

انَّ بين كتب مكتبتنا الشرقية مجموعاً ثميناً يرتقي عهدهُ الى القرن الثامن للهجرة والرابع عشر للمسيح وهو يشتمل على ثماني عشرة رسالة منها فلسفية لابن سينا والفارابي وابن الايلاقي ومنها مذهبية لابن البريّ او ادبية للامام عليّ وللثعالبي فاخترنا من هذا المجموع رسالة قصيرة لم تُنشر بعد بالطبع وهي لابي منصور عبد الملك بن اسمٰعيل الثعالبي النيسابوري صاحب فقه اللغة المشهور (١ المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)

والرسالة المذكورة تدعى: « مكارم الاخلاق » لم نجد لها ذكراً في كتاب كشف الظنون للحاج خليفة ولا في احد فهارس المكاتب الاوربية. فزادنا ذلك رغبةً في نشرها لئلّا تأخذها يد الضياع. وهي عبارة عن ثمانية ابواب قصيرة اودعها صاحبها حكماً بليغة مسجّعة في حسن سياسة النفس فنترفّها الى قرّائنا في بدء هذه البلدة كريمةً يتلون معانيها ويشعرون مبانيها

بسم الله الرحمن الرحيم وبهِ نستعين

امّا بعد فان احقّ كلامٍ نطق بهِ لسان. وأعرب بهِ بيان. وانطوى عليهِ كتاب. وانتهى اليهِ خطاب. ما زاد قوّة البصيرة. وعاد بصحّة السريرة. فطوّق طوائق العدل. وبيّن حقائق الفضل. فصار تذكرةً للاخيار. ومزجرةً للاشرار. وإماماً للعمّال. وقواماً لاكثر الاعمال. ترجع اليهِ السياسة. وتُبنى عليهِ الرئاسة. وتنتظم بهِ الاسباب. وتجتمع بهِ الآداب. فان الادب اديان ادب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدّى الى قضاء الفرض. وأدبُ السياسة ما اعان على عمارة الارض. وكلاهما يرجعان الى العدل الذي بهِ سلامة السلطان. وعمارة البلدان. وصلاح الرعيّة. وكمال المزيّة. لان من ترك الفرض ظلم نفسهُ ومن ظلم نفسهُ كان لغيرهِ اظلم ومن خرب الارض ظلم غيرهُ. قال الحكيم: بالعدل ثبات الاشياء وبالجور زوالها. وقال ايضاً: من ظلم نفسهُ كان لغيرهِ أظلم. ومن هدم دينهُ كان لجدهِ اهدم. وقال ابن المقفّع: خير الادب ما حصل لك نفعهُ. وظهر عليك اثرهُ. وقد جمعنا في كتابنا (٥٤ *) هذا الفاظاً

١) راجع ترجمتهُ في صدر فقه اللغة المطبوع في مطبعتنا (ص ٥) * صفحة كتابنا المخطوط

وجيزة اجريناها مجرى الامثال. وفصولًا قصيرة لاجل الفضل والكمال. وقصدنا فيما ألّفناهُ وجه الاختصار. وكُنه الاقتصار. ليقلّ لفظهُ. ويسهل حفظهُ. واستعنّا بالله في ما صنّفناهُ وهو حسبنا ونعم الوكيل. وهذا ثبت الابواب. التي يشتمل عليها الكتاب. وهي ثمانية: (الباب الاوّل) في ما يستعان بهِ على العقل والعلم. (الباب الثاني) في ما يُستعان بهِ على الزهد والعبادة. (الباب الثالث) في ما يُستعان بهِ على ادب اللسان. (الباب الرابع) في الاستعانة على ادب النفس. (الباب الخامس) في الاستعانة على مكارم الاخلاق. (الباب السادس) في الاستعانة على حسن السيرة. (الباب السابع) في الاستعانة على حسن السياسة. (الباب الثامن) في الاستعانة على حسن البلاغة

✲ الباب الاول في ما يُستعان بهِ على العقل والعلم ✲

العلم احسن حِلْيَة. والعقل افضل قِنية: العلم أفضل خلَف. والعملُ بهِ أكمل شرف: لا سعير كالعلم. ولا ظهير كالحلم: لا سيف كالحقّ. ولا عون كالصدق: عالم معاند. خير من جاهل مساعد: اذا قلّت المقول. كثرت الفضول: لا سائس مثل العقل. ولا حارس مثل الفضل. ولا حافظ مثل العدل: الجاهل يطلب المال. والعاقل يطلب الكمال: نظر العاقل بقلبهِ وخاطرهِ. ونظر الجاهل بعينهِ وناظرهِ: العلم كنزٌ عظيم لا يفنى. والعقل ثوبٌ جديد لا يبلى: كلّ خير يُنال بالطلب. ويُزاد بالادب: كم من عزيز اذلّهُ جهلهُ. وكم من ذليل اعزّهُ عقلهُ. العلم بغير عمل ضلال. والعمل بغير علم وبال: الادب مال. واستعمالهُ كمال: عداوة العاقل. خير من صداقة الجاهل: متع الكريم. افضل من بذل اللئيم: بالحلم يُقطع كلُّ شرّ: وبالعلم يُصلح كلُّ امر: العاقل من عقلهُ في إرشاد. ورأيهُ في إنداد. فقولهُ شديد. وفعلهُ حميد: والجاهل مَن جهلهُ في اغواء. ومن هواهُ في اغراء. فقولهُ سقيم. وفعلهُ ذميم (؟)

✲ الباب الثاني في الاستعانة على الزهد والعبادة ✲

مَن قنع بالرزق. استغنى عن الخلق: ومَن رضي بالمقدور. قنع بالميسور: من رضي بالقضاء. صبر على البلاء: مَن عمّر دنياهُ ضيّع مالهُ. ومَن عمّر آخرتهُ بلغ آمالهُ: مَن حاسب نفسهُ سلم. ومَن حفظ دينهُ غنم: الصبر يُعزُّ الفقير. والطمع يذلُّ الامير: مَن اتّقى الله وقاهُ. ومن اعتصم بهِ نجّاهُ: القناعة عزّ المُعسر. والصدقة كنز الموسر: مَن صبر نال المُنى. ومن شكر حصّن النُّعمى. قوّة اليقين. من صحة الدين: الرّضا بالكفاف.

يؤدي الى العفاف: من عاد الى ذنبه. اجترأ على ربه: درهم ينفع. خير من دينار يُضرع: مَن سرَّهُ الفساد. ساءهُ المعاد: السعيد من اعتبر بامسه. واستظهر لنفسه. والشقي مَن جمع لغيره وبخل على نفسه: الهوى مطيَّة الفتنة. والدنيا دارُ المحنة. فاعرض عن الهوى تسلم. واعرض عن الدنيا تغنم

* الباب الثالث في الاستانة على ادب اللسان *

إلزم الصمت تَعُد في نفسك فاضلًا. وفي جهلك عاقلًا. وفي قدرتك حكيماً. وفي عجزك حليماً: واياك وفضول الكلام فانهُ يُظهر من عيوبك ما بطن. ويُخرج من عدوك ما سكن: كلام المرء بيان فضله. وترجمان عقله. فاقصر منهُ على الجميل. واقتصر منهُ على القليل: اياك وما يُسخط سلطانك. ويوحش اخوانك. فمن اسخط سلطانهُ تعرَّض للمنيَّة. ومن اوحش اخوانهُ تعدَّى بالحرَّية: ومن كفَّ عن عرض اخيه دامت سلامتهُ. وقلَّت ندامتهُ: ومَن قال ما لا ينبغي. سمع ما لا يشتهي: لكلّ قول جواب. ولكلّ فعل ثواب او عقاب: رُبَّ حرفٍ. أدنى الى حتف: لا تأسف على ما لم يُقل. ولا تُجب عمَّا لا تُسأل: صمتٌ يعقبك الندامة. خيرٌ من نطق يسلبك السلامة: اذا سكتَّ عن الجاهل فقد اوسعتهُ جواباً. او اوجعتهُ عذاباً

* الباب الرابع في الاستانة على ادب النفس *

لا تستخفَّ بشريف. ولا تميلنَّ الى سخيف. فمن استخفَّ بشريف دلَّ على لؤم اصله. ومن مال الى سخيف ابان عن ضعف عقله. كلُّ امرئٍ يهرب عن ضدّهِ (؟59). ويرغب في مثله. يتزع الى ارومته. ويعمل على شاكلته: لا تستبدّ على(؟) تدبيرك. ولا تستخفَّ باميرك: فمن استبدّ بتدبيره ضلَّ. ومن استخفَّ باميره ذلَّ: اعصِ نفسك في طاعة سلطانك واجعل لدينك من دنياك نصيباً. وكن من نفسك على نفسك رقيباً: واذا جالستَ سادةً فالزم الصمت. واخفض الصوت. واستعمل الوقار. واحفظ الاسرار: ولا تحملنَّك مباسطتهم لك ومخاطبتهم اياك على ازالة الحشمة. واضاعة الحرمة. فانَّ زوال الحشمة يورث الغضب والإنكار. واضاعة الحرمة توجب الغضب او النفار

* الباب الخامس في الاستانة على مكارم الاخلاق *

خير الامور ما استرقَّ حرًّا. وخير الاموال ما استحقَّ شكرًا. من انبسطت يدهُ بالإنعام. صارت نعمتهُ على الدوام: رأس الفضائل. اصطناع الافاضل. ورأس الرذائل.

اصطناع الارذال (الأراذل) : ما عزّ من ذلّ جيرانهُ . وما سعد من شقي اخوانهُ : من أعزّ فلسهُ . اذلّ نفسهُ : من ادام الشكر . استدام البرّ : اجلُّ النوال . ما حصل قبل السؤال : احسن المقال . ما صدّق حسن الفعال : من منع العطاء . مُنع الشفاء : اخلاص التوبة تُسقط العقوبة . واحسان النيّة توجب المثوبة : مَن منّ بمعروفهِ سقط شكرهُ . ومن أُعجب بفعلهِ . حبط اجرهُ . من بخل على نفسهِ بخيرهِ . لم يَجُدْ بهِ على غيرهِ

* الباب السادس في الاستعانة على حسن السيرة *

بالراعي تُصلح الرعيّة . وبالعدل تملك البريّة : مَن عدل في سلطانهِ . استغنى عن اخوانهِ . أقرب الاشياء صرعة الظلوم . وانفذ السهام دعوة المظلوم : من ساءت سيرتهُ لم يأمن ابدًا . ومن حسنت طريقتهُ لم يخف ابدًا : من انتقم اجتلب البلاء : ومن احتسب اكتسب الثناء : من احسن فبنفسهِ بدا . ومَن اساء فعلى نفسهِ جنا : مَن طال تعدّيهِ . كثر اعاديهِ : مَن حفر حَفرًا لاخيهِ . كان حتفهُ فيهِ : مَن جار حكمهُ . اهلكهُ ظلمهُ : من خادع الله خُدع . ومَن صارع الحقّ صُرع : مَن احبّ نفسهُ فليحبّ الانام . ومن رحم ولدتهُ فليرحم الايتام (؟ 59)

* الباب السابع في الاستعانة على حسن السياسة *

آفة الرعيّة مفارقة الطاعة . وآفة الزعماء ضعف السياسة . وآفة العلماء حبُّ الرئاسة وآفة القضاة شدّة الطمع . وآفة العدول قلّة الورع . وآفة العدل مَيْل الولاة . وآفة المذنب سوء الظنّ : من سالم الناس سلم . ومن قدّم الخير غنم : من لزم الرقاد . مُنع المراد : من دام كسلهُ . خاب املهُ : من فعل ما شاء . لقي ما ساء . من استعان بذوي العقول . فاز بنيل المراد : من استشار ذوي الالباب . سلك سبيل الصواب

* الباب الثامن في الاستعانة على حسن البلاغة *

من وثق بالله اغناهُ وتمّت معرفتهُ . ومن توكل على الله كفاهُ وبهِ قلّت مخافتهُ : الصدق رأس الدين . والزهد اساس اليقين . والتقوى خير زاد . والدين اقوى عماد : الطاعة اوفى حِرز . والقناعة ابقى عزّ : اذا حلّت المقادير . ضلّت التدابير : الكلام المهذّب . كالحسام المذرّب : الجوع . خيرٌ من الخنوع : ذكر السلطان نار . وذمّ الاخوان عار : اذا ملك الاراذل . هلك الافاضل . اذا تغافل اهل التفضّل . هلك اهل التجمّل : من عجز عن الاحسان . ثقُل على الاخوان — تمّ مكارم الاخلاق والحمد لله والصلاة على رسولهِ محمّد وآلهِ وحسبنا الله ونعم المعين